

٤٠ مليارات دولار هي التكلفة التقديرية لمشروع «ناقل مياه البحرين»، الهادف إلى نقل ٢ مليار متر مكعب من مياه البحر الأحمر إلى البحر الميت سنويًا لإنتقاده. مشروع يشارك فيه كل من الأردن وفلسطين وإسرائيل، واقتربت الدراسات المتعلقة به من الانتهاء، ليكون الموعد المحدد لإنجازه بحدود العام ٢٠٦٠.

نکایة ؟ عاش الـ دیالكتیک

منذ أيام، تضجّ مصر، إلى جانب همومها الكثيرة، ببنية الحكومة ببعض مبني «ماسيبورو»، أحد معالم القاهرة وفخر صناعة الإعلام في «المحروسة»، الذي شيدّه عبد الناصر بمناسبة الذكرى الثامنة لثورته. إنها محاولة لإلغاء التاريخ وهو الذكرة، وعلاوة عليهما شكل للنكأة بل وحتى التأثير الرمزي. وهذه الأمور جزء من سمات المرحلة التي بدأت مع أولى الانتفاضات العربية، وأغلب الظنّ أنها لا تزال بعيدة عن الوصول إلى مآل راسٍ. فإلى جانب سيادة العنف، وصعود الحالة الإسلامية، والحرّاك الجماهيري التغييري المتواصل، والنقاشات غير النضبوطة حول الشكل المطلوب للدول، وفobia التقسيم، وولادة الأحزاب الجديدة... تطلّ «النكأة» عند كل منعطف، كسلوك وكموقف لدى الحكام الجدد، كما عند العارضين «والشعب» و«الشعب الآخر». بل باتت شيطنة الطرف الثاني هي القاعدة، حتى في تحديد السياسات الرسمية.

ليست النكأة في السياسة سوى الإسم الحركي لسلوك ومنهج قائمين على ردّة الفعل لا الفعل، لغياب المشروع لا لوجود البرتاجم في الاجتماع والاقتصاد والإدارة... أي في السياسة بمعناها الأوسع. الأكيد أن النكأة هي من نتائج التصرّف الثقافي والفكري والسياسي الذي عمّمهه الأنظمة الاستبدادية التي قامت. تصرّف لم تقتصر سموه على حظر الأحزاب والتيارات والفكر الحرّ، بل طال أيضًا منع تخيل البدياوى وإنتاج الأفكار. وقد ظلّ تعاطي شعوبنا مع الأفكار، يجري لفترة طويلة، وفق قانون «الاستضافة» من دون سجالات ولا نقاشات علنية: نغضّفها، وتقاربها بشكّلية أي سطحية وحزينة، ثم نرميها لنحيث بعدها عن غرّها.

بسطحية وجريئة، بمزمامها للبحث بعدها عن غيرها. هكذا صرنا نعرف إلى حد ما، ما لا تزیده، وبقيت الصعوبة تكمن في قول ما تزیده، في بِلُورَةٍ مشروع وبرنامِج للمجتمعات وللحكْم. عُطِّب استغلهِ الالسالميون، ولا يزالون، خير استقلال للوصول إلى السلطة في عواصم عربية عدّة، بما أنّ شعار «الاسلام هو الحل»، رغم غموضه وتبيسيه، فقد أتّاح للتيار الاسلامي العريض جذب شريحة كبيرة، لا يمكن حصرها بالطبقتين الدينية والوسطى، تحديداً لأنّه يحاوِل قول شيء ما، أو يحدّد ملامح برنامج معين. انجذاب ما كان ليحصل لولا غياب اليسار العربي الذي بات يختار بين الواقع المطروحة أصلًا، بعدما كان ينتَج الأفكار والبرامج...
لا تنجب الأمثلة على امتهاننا النكایة السياسية. يخبرك معارضون من البحرين وال سعودية، كيف إنهم باتوا شبه منبوزين في مجتمعاتهم المعارضة أيضاً، لا لسبب سوي تأييدهم الانتفاضة السورية. عملية حسابية بسيطة تنتهي بمعادلة أقل ما يُقال فيها إنها سخيفة: النظامان السعودي والبحريني مؤيدان جداً للمعارضة السورية وإسقاط الأسد، وبالتالي، وبما أنّ مبدأ «عدُوٌّ عدوٌّ هو صديق» هو من سلالة النكایة، فإنَّ الخلاصة تؤيد بضرورة تأييد النظام في دمشق! ولدى أهل البحرين ما يزيدونه على نظرائهم السعوديين في هذا الخصوص، إذ يجزمون بأنَّ عدداً كبيراً من عناصر الشرطة البحرينية مَنْ يقتلونهم ويقطعونهم يومياً، هم من السوريين (الستة) المنفيين، المحسنين في المملكة الخليجية، خصوصاً في حقبة ما بعد مجرزة حماه، وأواخر السبعينيات ومطلع الثمانينيات. هذا مثال على سلوك شعب لا يستهان به. رسميًّا، لا تُحصى الأمثلة المضحكَة - المبكية. أما على صعيد المثقفين، فيُظَنَّ الرءُ أنَّ الوضع سيكون أفضل، لافتاجأ بفتانيين ومتكلمين شيوعيين في لبنان، يُسألون عن موقفهم من الثورة السورية، فلا يجدون في محاولة ردّهم إلا إعادة السؤال لصاحبِه: «كيف تكون الأحداث؟ (جيـّد أنهم لم يقولوا «الأزمة») في سوريا ثورة، بينما تؤيدتها قوى ١٤ آذار، فـ«لبنان»؟! عاش، الدبالكتك.

أرنست خوري

«كاذبون» والصراع على نمط السلطة والوعي في مصر



الأفراد أمام بشاعة السلطة وإمكانية تعرضهم لمثل تلك الانتهاكات. وتقوم بفضح وتعريمة ممارسات السلطة. ومن هنا تتوارد مقاومة شديدة تنتمي للسلطة العسكرية وما يمكن أن تتسبّب فيه، والسلطة المؤطرة بقداسة النص وما يمكن أن تفضي إليه. فالصورة تلعب دوما دور السحر، بالأخص إذا تناهت التواصيل الانسانية حول موضع الحدث. ولقد أسهمت الثورة في توسيع ونشر صورة خالد سعيد مما استدعت انتباها كثيرين أن ما حدث ليس بعيداً عنهم، وأن حالات التعذيب وسحق الأجداد لم تعد ممارستها تقصر فقط على داخل بيئة أمن الدولة وسراديبيها، وهي أيضاً لم تعد مقصورة على فئة أو شريحة معينة من الناس في معاملاتهم اليومية مع الشرطة، ولكنها صارت على قارعة الطريق وأمام الجميع. تقوم حركة كاذبون بعرض الأفلام والمصور لما يتعرض له المتقاهمرون والمواطنون من العسكري، ثم ما يحدث في عصر الإخوان، وأحياناً على أيديهم بشكل مباشر. ولا تكتفي بهذا فقط، وإنما يتواصل أعضاؤها مع أفراد الشارع والمارة في مناطق النزول. ومن خلال هذا التواصل يستطيع هؤلاء النقاش والوصول إلى تفاهمات وتوضيحات مع المختلفين معهم. فمثلاً كان الكثيرون يرفضون معارضه المجلس العسكري ومقاومته، إلا أن كثيراً منهم بعد تواصل ونقاش ورؤيا الأفلام والمصور وافقوا على أن هذا «السحق والتدمير» لأنّي أنا وبنيتنا حتى لو أختلفنا معهم» هو غير معقول وغير مقبول.

بالإضافة إلى أنه حينما تناهت التواصيل ضحايا هذه الممارسات أنفسهم مع الشارع، يرى الناس أن هؤلاء ليسوا بلطجية ولا مأجورين، يعكس ما يقولون عنهم أصوات السلطة، فتنتمي إعادة التصنيف والتعرّيف من أسفل. إن غياب الثوار عن التواصل مع الشارع بشكل منهج يعطي فرصة كبيرة لجعل توصيف السلطة حقيقة راسخة في الأذهان، حيث أن الخطاب الإعلامي وال رسمي لمؤسسة الدولة والسلطة قدرة كبيرة على صياغة تعريف الأشياء وبالتالي تجريمها أو تحليلها. وهذا ينطبق على الكتلة البشرية العامة، حيث لا يمكن الاكتفاء برأي النخبة، وإن كانت ثورية.

ما تقوم به حركة كاذبون هو مواجهة خطيرة للسلطة في ساحة تعريف الأمور الواقع للأشياء. وإذا نجحت هذه المحاولة قبل أن يعيد النظام السابق إنتاج نفسه، فستنتحل الثورة في ترسیخ مفاهيمها والتتجذر في المجتمع. وهو ما يستتبع قدرة أعلى في إسقاط النظام القديم وتغيير نمط السلطة، والشرع في نشأة نظام جديد على أساس تحقيق الآمال الثورية.

مع وصول الإخوان للسلطة، ومحاولتهم قمع الثورة والمقاومة للنظام الاستبدادي العام وجهاز الدولة القمعي. ولم تكتف قيادات الإخوان بتلقيهم وجريدة «الحرية والعدالة» وقناة «مصر خمس وعشرين» عن التأويلاً ببعضها الفوضي، فلما كان يفعل مبارك، واستخدام خطاب الثورة المضادة نفسه، بمفرادته، مثل هيبة الدولة، والأمن، واحترام السيادة، والأبوية، والتاترية. وهو الخطاب نفسه الذي يحاول قمع المقاومة والمطالبة بالحقوق الابتداعية والحرفيات الفردية والسياسية، حتى مزاعم الأمن القومي، مصنفًا كل معارض له بالعميل صاحب الأجندة الخارجية. وزاد مؤخرًا على الأم安 القومي وذلك العقائدي، ضد ما تسييهم السلطة العلمانيين الذين يريدون خراب الدين وأحياناً نزعهم فصائلاتهم بالفجرة واللاملاحة.

استعادة القيم التأسيسية

وحركة «كاذبون» لا تقوم فقط على نشر الوعي بأليات التسلط، ولكنها تعد للمواطن لأساسيات الفطرة الإنسانية، وحقه في الكرامة. وهي أيضًا تدعم ابتداع مقاومة السلطة الطاغية بأشكال مختلفة. وتساعد الحركة الثورة على التجذر في المجتمع والتواصل معه. فقد شهدت الفترة الأخيرة انحسار الثورة وضعف وجودها في ميدان التحرير. وتسبب ذلك في تضييع التواصل بين الحركات الشورية والمجتمع والمعتقدات في نشر قدرة الثورة على المناورة وشن حرب الأفكار والمعتقدات في مواجهة السلطة وجهاز الدولة. ففي الوقت الذي احتفى به شباب الثورة وببعض الرموز الثقافية بالاتصال الجماهيري من خلال الفضائيات، ومجد ذورهم في الإعلام لا في الشارع المصري، نجحت قوى الثورة المضادة في التجذر والتواصل مع قطاعات كبيرة من المجتمع، والتلاعب بالاحتياجات الإنسانية المتمثلة في لقمة العيش والأمن. وهو بشكل من الأشكال نجاح للثورة المضادة في ضرب الثورة وأخذها من أسفل. ويحدث هذا ببساطة عندما تترك المساحات والاماكن المختلفة، كأرض رحبة للشخص يتمترس بها ومن خالها في مواجهة قوى ثورية، هي بالنسبة للكثيرين شبح يظهر من حين آخر بميدان التحرير. ولقد نجحت السلطة والقوى المضادة في تصوير هذا الشبح بشكل معاد لحياة الناس وأمنهم واستقرار أشغالهم وتهديد صالحهم. في المقابل لم تنجح الثورة في تصوير حلمها الشوري.

استعادة القيم التأسيسية

تعد حركة «كانديون» شكلاً جديداً قدماً في مواجهة السلطة. فهي تقاومها من «أسفل»، في الموقع الذي يدرك فيه المجتمع تفاعله مع الأشياء ومع محطيه ووعيه بذاته وبيننط السلطة الذي يمارس عليه. وتستمد الحركة شكلها وطبيعة عملها من مخزون كبير قائم في التراث المصري. فهي تنزل إلى الساحات العامة وتقوم بقص رواية أخرى مغايرة لرواية السلطة. وهي بهذا تذكينا بالحكواتي والأراجوز (الكركوز) وخيال الفلل وحواديت جحا. إلا أنها ليست ثوب العصر الحديث.

الحكواتي الجديد

تم استبدال الأراجوز بشاشات العرض الضخمة، واستبدلت حركة خيال الليل بحركة الأفلام المصوّرة المصوّبة بالصوت والموسيقى. وتعد مثل هذه الحركات في وقتنا الراهن الأخطر في مواجهة السلطة، طبّيعة تكوينها ونطع تفاصيلها. مؤسسة السلطة، مصوّبة بجهاز الدولة، تجد صعوبة شديدة في مواجهة مثل تلك الحركات لاتسامها بالرخاوة والسيولة. فلا يوجد قيادة مركزية لتلك الحركة، وهي منتشرة في عموم الجمهورية، أفقياً لا رأسياً، مما يجعل تتبعها ومحاولاتها قمعها تبوء بالفشل، حتى ولو نجحت ظاهرياً في إحدى المرات. ذلك أنها تعيد تشكيل نفسها باشكال مغايرة وأشخاص جدد وأنماط تفاعل غير مسبوقة. فغياب فكرة الرأس والتنظيم الشجري الذي يمكن تتبعه ومحاسره قياداته أو التفاوض معها ومساومتها، يجعل السلطة في مواجهة شبح خفي قابل للظهور في أي وقت والاختفاء في أي وقت أيضاً. أضفت إلى ذلك أن الحركة لا يوجد بها داخل وخارج. فخارجها داخلها وداخلها خارجها، لأنها تستمد حركتها من أبناء المناطق المختلفة الأكثر وعيّاً بأحيائهم وطبيعة ونطع تفاعل الأهالي بها. وهي تستمد موادها من الفيديوهات والصور المختلفة التي يقوم بتسجيلها المواطنون. وبهذا هي لا تعاني مشاكل ضخمة في تعبئة الوارد أو مشاكل في التمويل، حيث لا تقوم بإنتاج أفلام ضخمة التكلفة. وهي تنزل إلى الساحات بشاشات عرض من اقمشة بيضاء أو مما ينطعوه به بعض الأفراد، ما يهيئ لها سرعة كبيرة في الحركة ومتانة السلطة. ولقد كسرت الحركة عوائق مثل الانتماء الطبقي وثنائية علمانية /إسلامية. فنجحت في النزول إلى مناطق مختلفة مثل إمبايطة (أحدى المناطق شعبية)، ومصر الجديدة التي تعد منطقة يسكنها أصحاب الداخيل العالية. وهي تستهدف خلقوعي بالذات والمحيط وعمارات السلطة ووحشينها، بعيداً عن الصراعات الأيديولوجية. ويمكن القول إن الحركة نجحت نسبياً في التواصل مع قطاعات من المجتمع والتاثير فيهم. ولعل الشاهد على ذلك أكثر من واقعة. فمثلاً هي نجحت في حذب تعاطف جماهير منطقة سيدى جابر في الإسكندرية، بعد أن كانوا يتسمون بعدائية شديدة تجاه الثوار. وتحلى تأثير الحركة في إمبابة عندما قام أهالي المنطقة بطرد الفريق أحمد شفيق، أحد مرشحي الرئاسة التابعين لنظام مبارك والمجلس العسكري.

نقاط الصراع مع السلطة... وليس من أحلها

تتصارع الحركة حول نمط السلطة وطموحات الثورة ورفض حكم العسكر، ولا تتصارع على الوصول إلى السلطة والحكم. وهو ما يبعدهما بالكلة عن أي نوع من التأثير أو المصالح الشخصية. إلا أن مثل هذه الحركات تولد نوعاً غريباً من المقاومة من قبل السلطة. فالجلس العسكري، على عكس مبارك، قد أستوعب الدرس. وبدأ في التمترس المباشر في المجتمع وخلق خلايا رخوة أيضاً، وأحياناً غير منتظمة، وتتنسم بالطبيعة نفسها، وذلك في مواجهة حركة مثل «كاذبون»، مما يجعل تلك الحركات تواجه مقاومة شبيهة للغاية، مما يعقد العمل التي تقوم به وب卿قه. وسيتوقف النجاح على مدى التجذر واستقطاب أبناء المناطق أنفسهم، فإذا قام الأهالي بأنفسهم بالتحرك، في مناطقهم وأحيائهم، وبناء الحركة من بين أبنائهم، فسيزيد ذلك من قوّة وفاعلية الحركة، وسيقضي بالضرورة على القوى المضادة وعلى فرصها في التحدّي في المجتمع.

«سکر کاذبوز» و «اخوان کاذبوز»

تحاول الحركة كسر حالة الإنكار التي أصابت قطاعات واسعة من المجتمع في خضم الأحداث الأخيرة. وكان مسعى الحركة في نسختها الأولى («عسكر كاذبون») قائماً على تحريك ما يمكن تسميته بالقطرة الإنسانية تجاه انتهاكات العسكر الصارخة. وتسعى في مرحلتها الثانية («اخوان كاذبون») إلى فضح انتهاكات النظام في ظل حكم الإخوان، ورفع غطاء القدسية الدينية عنه من خلال تفكك خطابه وفضح أكاذيبه وتناقضاته، وإظهار جانب الوحشى السلطوى. ومن ناحية أخرى يمكن القول إن الحركة تقوم بنشروعي مضاد للماكينة الإعلامية الضخمة التابعة للمجلس العسكري، سواء الخاصة أو «ماسيبتو» وجهاز الدولة بشكل عام. ولم يختلف دورها كثيراً في المرحلة الثانية لأن الإخوان حاولوا وراثة الجهاز نفسه بأيدياته القمعية والتضليلية نفسها. وأغلبظن أن الناس كانوا على ثلاثة حالات تجاه انتهاكات العسكر: الإنكار، أو عدم المعرفة بالأحداث وتفاصيلها، أو مقاومة، وتأييد، تجاه ما يقع عليهم. وكان دافع الأمان والاستقرار هو



8 / 8

٨٧٨

"نبع" مسلسل مصور يحول على انتفاضات المنطقة العربية. ثمان حلقات. أبطالها مدونون شباب. نقيس عبرهم نبع مجتمعاتهم. بطموماتها واحباطاتها. وهي وقفة مناسبة سنتين بال تمام

على الثورات.
...
استعرضت "نبض" أوضاع
البلدان التي شهدت ثورات. عبر
مجموعة من المدونين والمدونات.
تبادلوا الآراء حول الصعوبات
والعقبات. كما الإيجازات. والأعمال
الفنية. كما في

التي لم تحمد. رع

أبطال القصة

هسام من مصر
طاهر من تونس
أنس من سوريا
مريم من البحرين
نجلاء من اليمن
عبد الحفيظ من ليبيا

رسـم: كـمال الـحـكـيم

قطاع غزة مهدّد بخسارة ٣٠ في المئة من البضائع التي تدخل إليه، وذلك بفعل الحملة المصرية لإغلاق أتفاق التهريب، باغراقها بمياه الصرف الصحي. عددها اليوم ألف نفق. ١٠ آلاف فلسطيني مهدّد بخسارة عمله في تلك الاتفاق التي قُتل واستشهد فيها ٢٣٣ شخصاً منذ العام ٢٠٠٧، منهم بفعل حوادث عمل، وأخرون خلال غارات إسرائيلية.

الثورة والسلطة، جدلية الريف والمدينة: حلب نموذجاً

الشديد على مدى عامي ٢٠٠٩ - ٢٠١٠، وتراجع أعمالها أو توقفها. كما أثر سلباً تهميش القطاع العام في الخطتين الخمسينتين الأخيرتين، والتركيز على قطاعات ربحية غير انتاجية كالبنوك والفنادق. دفع كل ذلك لأن تشكل الأحياء الطرفية ومناطق سكن المهاجرين الريفيين، ما يشبه حسان طروادة في عمق المدينة الحلبية. وقد عانت هذه المناطق من عسف السياسات الحكومية، وتدني المستويات الخدمية. وشكلت نوعاً من التوازن القلق، بين ترسيف المدينة، وتغدين الريفيين، ظل قائماً حتى أخذ التزايد السكاني الذي يتبع متواлиات حساسية متصاعدة، يسبب خللاً في بنية المدينة ووظائفها، لم تستطع تحمله رغم ظهور آثار النمو الاقتصادي الكبير في قطاعات المال والتأمين والعقارات فيها. التي شكلت بدورها جاذباً للعمال الرخيصة.

الانسياطار كما طهر
دفع اندلاع الثورة السورية في ١٥ آذار ٢٠١١ جميع الأزمات المحلية إلى الواجهة، وقادت المظاهرات الأولى المتذرعة في شوارع حلب بعد شهر تقريرًا إلى حالة اصطدام جديدة في سوريا، إذ تشكل حلفان متناقضان، في حال من الواحدة، يتمثل أحدهما بالسلطة وأجهزتها الأمنية وقواتها العسكرية وجهاز حزب البعث العربي، يسانده تقتل رجال الأعمال المستفيدين من أرباح فترة الانفتاح السابقة، علاوة على ذراع مليشياوي للسلطة تمثل في عشائر عربية سنية كان أبرزها آل «برى» أو عشائر كردية «الماردل»، وهو يعملون تاريجياً في تجارة المخدرات والتهريب، يضاف إلى كل هؤلاء شبكة علاقات طائفية تمتد بين رجال الدين الأرمن والمسيحيين والسلميين «الرسميين»، في مواجهة الحلف الثاني القائم على الريف الحلبي أساساً وقاطني المدينة من أصول ريفية، وشباب الطبقات الوسطى المتعلمة، عبر حراكم في جامعة حلب التي يتشكل القسم الأعظم من طلابها من أبناء الطبقات الوسطى في مدن محافظات الشمال، من الرقة وحلب وإدلب، وكذلك أبناء عائلات الفلاحين الميسورة، في حين تفضل الشريان العلية التعليم في الجامعات

في البداية، كانت أحياء صلاح الدين والصاخور وبستان القصر والسكنى والكلasa وجامعة حلب، مراكز أساسية للمظاهرات السلمية، في حين كان الريف الحلبي وأمتداده في إدلن قد بدأ بالانتقال التدريجي إلى الحالة المسلحة. وهو ما حدث نتيجة غنف السلطة حيالها، التي اكتفت بالاعتقال الكثيف والضرب المبرح والتعذيب لمتظاهرى حلب. وكان واضحًا أن هناك قراراً سياسياً /أمباً/ بعدم السماح بالتفريط بحلب، منها كان الثمن، ما تسبب بنشوء اختلال جديد بين الريف المنشغل والمدينة الهدأة نسبياً. ودام هذا الوضع سنة وضعة شهور، حتى انتقل السلاح إلى المظاهرات في الداخل الحلبى، وتحولت بذلك مناطق صلاح الدين والصاخور والشعار إلى بؤر مشتعلة.

وبينما مناطق معينة، لاعتبارات مختلفة، منها الطائفى والعرقى، ومنها الطبىقى، قد احجمت عن الالتحاق بالانتفاضة أو أنها أيدت السلطة، التحق بها جميع أحياء حلب الشعيبة الفقيرة، وخصوصاً حزام الفقر الجنوبي والشരقي، وأحياء حلب القديمة (عدا أحياء السريان والأرمن). وهكذا بقيت أحياء الشرائع الوسطى والغربية في وسط وغرب مدينة تحت سيطرة الجيش النظامى، لأن إبناءها فضلوا حفاظ على مكتسباتهم وتجنب الانخراط في مغامرة قد تؤدى إلى الخسارة الكلية، كما حدث في الثمانينيات. وهذا ما شكل خطوط تماس تفصل بشكل حدى بين حلب الغنية وتلك الفقيرة.

أستاذة الاقتصاد السياسي من سوريا

A photograph showing two children standing behind a row of large plastic jugs and containers. On the left, a young girl wearing a grey hijab and a blue and yellow striped sweater stands with her hands in her pockets, looking towards the right. On the right, a young boy in a blue and red striped sweater and jeans stands with his hands in his pockets, smiling. They are positioned in front of a corrugated metal wall with a central wooden door. In the foreground, there is a row of various plastic containers, including white, orange, and blue jugs, and larger black and red barrels.

في انتظار الماء، شمال حلب

التضخم وارتفاع أسعار الغذاء، وانسحاب الدولة من دورها الرعائي - التنموي للريف الزراعي في موجة التحرير المبكرة الثالثة للاقتصاد المركزي السوري (فورة المراسيم والقوانين الإصلاحية الليبرالية المتقدمة من ذكرى ٢٠٠٣)، مما تسبب في عودة المتعهدين /كبار المالك وسيطرتهم على الأراضي الزراعية، وما ساهم في الارتفاع العمراني العشوائي، وبالتالي في أزمة العقارات الخانقة.

كما كانت السنوات الأخيرة قبل اندلاع الثورة السورية قد حملت تغييراً في المشهد الاقتصادي في حلب، متمثلاً في إنهاء عقوبة المدينة التاريخية بعد حادث ١٩٨٢-١٩٧٩، الناجمة عن غضب سلطوي عليهما إثر تعاطفها مع الحراك المناهض لحكم الأسد الأب حينها، بين في ذلك تجارها وصناعوها الذين دعموا العصيان المدني، وحاولوا قلب نظام الحكم البعشي. دامت العقوبة حتى وراثة بشار الأسد للسلطة عن أبيه، حيث اعتمد سياسة انفتاح تجاه الحاضرة المنوية، ما أدى إلى ازدهار الأعمال والتجارة في السنوات الأولى من حكمه. وترافق ذلك مع فتح الأسواق التركية، ونشوء طبقة جديدة من رجال الأعمال المحليين.

المافسة التركية

إلا أن أزمات الانفتاح غير المشروط على الأسواق التركية، ومنافسة البصائر التركية لتلك السورية، تسببت في معاناة البرجوازية

لمستوردين المخولين من خلال نظام الواردات مستثنائي، لاستيراد مواد كانت محظورة سابقاً، كذلك للاستيراد دون تحويل القطع الأجنبي، أصدر عفو عن تهريب رؤوس الأموال. تعززت هذه التوجهات التحريرية الأولى في دستور ١٩٧٣ الذي كفل الملكية الخاصة، ومنع صادرات إللتقطع العام. توافق ذلك مع ارتفاع عائدات النفطية وتزايد تدفق المال من مصادر أجنبية بعد حرب تشرين ١٩٧٣. تسببت موجة البلبرلة الأولى في افقار الريف وهجرة أبنائه إلى المدن. بدأت موجات النزوح من الريف قربن لحلب، من حريتان وعنهان ومارع وتل فعت، وسكن النازحون في الأحياء الجنوبية الجنوبيّة الشرقيّة لحلب، كـ«صلاح الدين»، «سيف الدولة»، و«الصالحون»، وهي أحياء سعيّدة منتظمة (غير عشوائية) كثيفة سكاناً. سكن أبناء «دارة عزة» في «الクラスة». كما كانت هجرة من مدينة الباب وريفها الشرقي إلى حي طريق الباب العشوائي. واتخذ مسار الهجرة الداخلية إطاراً جماعياً العريض منذ أوائل الثمانينيات، بعد تدهور الحياة المعيشية للريف اتساع آزمات الاقتصاد الزراعي السوري، وندرة فرص العمل في الخليج العربي.

موجة ثانية من الهجرة بسبب الجفاف

كانت فترة الجفاف ٢٠١٠-٢٠٠٦ القاسية التي شهدتها سوريا، السبب الرئيسي في موجة هجرة الكبيرة الثانية إلى مدينة حلب، يضاف

الضرائب، وكانت ختاماً للعملية الانفتاح الاقتصادي الثانية وذروة التغيير الهيكلي له، إلا أن ما حدث منذ تسلم الرئيس بشار الأسد السلطة هو الانحساب الكامل للدولة من قطاعات إنتاجية عدة، كان أبرزها الزراعة، ضمن مقاربة سورية حكومية منسجمة مع وصفة صندوق النقد الدولي، من دون توقيع اتفاق معه. تسبب ذلك في زيادة سريعة جداً لظهور الأيدي العاملة الخريصة، مترافقاً مع تحول المعهدين الزراعيين إلى ملاك كبار، رغم تعديل الحد الأعلى للملكية بشكل متكرر باتجاه خفض سقفها، إلا أن القاعدة المعتمدة كانت التجاوز على القانون، وعلى حد الملكية نفسه، بفضل الفساد في العلاقات الشخصية والحزبية والأمنية. فنجده أنه في عام ١٩٦٩، كان سقف الملكية هكتاراً من الأرضي المزروعة، و٤٠ هكتاراً من الأراضي البعلية، وفي عام ١٩٨١، تقلص سقف الملكية الأعلى ليصبح ٣٠٠ هكتار، لكن ازدادت نسبة أصحاب الحيازات التي تربو على ٣٠٠ هكتار أو «يزيد». مرحلة الانفتاح الأولى وموجة الهجرة من الريف إن تطور الريف السوري كان محفزاً عليه من قبل السلطة السياسية وقراراتها الليبرالية الأولى منذ عام ١٩٧٣، أي مرحلة الانفتاح الأولى، وهي ما يسمى «التحرير في ظل النمو بقيادة الدولة»، إذ اعتمد النظام الجديد سلسلة من التدابير التي تستهدف الحصول على ثقة القطاع الخاص ودعمه، وأذيلت بعض القيود على طبقات الـ ٣٠ في ريف علاقة مين من ية مع طبقات الـ ٦٠ في الحياة الـ ٣٠ في تشهد في المئة الزراعية في اللحج العدنية فيها ما القطاع بشكل لحدود جبلة

يُفوق ٥٨ في المئة من قوة العمل في منطقة سمعان، حيث يتوزعون على معاٍمل وصناعات الأقطان والنسيج والصناعات التحويلية والكهربائية والإلكترونية، ويتركز يقارب ٣٠ في المئة من مجمل منشآت اٍلخاص الصناعي في سوريا، مما يحوله عام إلى منطقة مدينية صناعية متجاوزة حلب الإدارية.

في حين ترتفع نسبة مالكي الحيازات في ريف حلب الحاذلي لتربكها إلى ٤١٦ من سكان الريف الشمالي، (وهي منطقة كثافة سكانية للسوريين الكرد، بنسبة المئة من سكان المحافظة) كعفرين وعين التي تصل نسبة المستغلين بالزراعة إلى المئة من قوة العمل فيها، تنخفض نسبة في الريف الشرقي الأكثر فقرًا إلى ٣ في المائة، إن الطبقة الفلاحية الوسطى والكبيرة في حلب (والريف السوري عموماً) أقامت متشابكة مع المستثمرين والمعتمدين القاديين، وهي تقاسموا الدخول الزراعي في المدينة، ما شكل خط صراع بينهم وبين الدولة، ما تعلق بالشكل العام للإنتاج الزراعي البصاعي، أي بإخضاعه لمنطق القيمة التالية وهو ما حدث بدءاً من القانون رقم ١٩٩١ المعروف بـ«قانون الاستثمار» الذي للمستثمرين بأن يدخلوا في أي ميدان رئيسي ميادين الاقتصاد السوري، ضمن

وصول الدولة إلى حافة الإفلاس. حدثت حينها موجات غلاء وفقدان للمواد الاستهلاكية الرئيسية لعدة سنوات متتالية. والهجرة الكثيفة وقعت بين صغار المستفيدين من العمل الزراعي الذين انتقلوا إلى ضواحي المدن بعد عجزهم عن البقاء كمهاجرين مستقلين، أو أنهم انحدروا إلى مرتبة العمال الزراعيين وهم من أفق طبقات المجتمع السوري وأقلها حماية قانونية.

ظل أصحاب الحيازات المتوسطة المستفيدين الحقيقيين من وصول البعث إلى السلطة. ونتيجة انتقامهم للبعث ومنظماته الفلاحية والتعاونية، صار أصحاب الحيازات المتوسطة هم الطبقة القيادية السياسية في الريف، بعد أن فقد كبار المالكين وأصحاب الأطيان السلطة السياسية من دون أن يفقدوا بالضرورة ملكياتهم.

التطبيق على حلب

يقدر عدد سكان حلب بما يزيد على أربعة ملايين نسمة، أي ما يقارب ربع سكان سوريا، وذلك باعتماد أرقام المكتب الرئيسي للإحصاء لعام ٢٠٠٤، وهي آخر أرقام رسمية موثوقة، تحيصي عدد سكان سوريا بـ ١٧.٨٧٤.٥٨٩. يقطن من الملايين الأربع ما يقارب ٢٥ مليون نسمة في منطقة جبل سمعان، التي تضم بالإضافة إلى مدينة حلب مدن حرستان والحاضر ودارا عزة والزربة وزمار وتل الصمان. ويمتلك ما يقارب ٠٨ في المئة من سكانها حيازات زراعية، ويتركز فيها

الأردن... بلد يمْذاق اللاجئين

هُنا، في الأردن، يفرض اللاجئون إيقاعهم الخاص، يلْحِظون حاملين معهم طقوساً وأنماطاً اجتماعية وأخواض الزرع، انسياحاً للشروط التي فرضتها الشقق الاسمينة ذات المساحات الضيقة، يعكف اللاجئون السوريون على تزيين منازلهم التي استأجرتها لهم جمعيات الإغاثة داخل العاصمة بأحواض الزرع. ليس مفاجئاً أن تجد منهم مِن زرع في منزل لجوئه ياسميناً دشنياً قد يحتاج وقتاً طويلاً للنمو، في محاولة لاستحضار منازل ابتعدوا عنها، وربما كتسليم ضمئي منهم بان اللجوء سيطوي مانحاً الياسمين فرصة لزهور. لو حدث ذلك، فقد يُعرفُ مكان إقامة اللاجئين السوريين مستقبلاً من رائحة منازلهم.

التوارد السوري أراح الأردنيين من عبء الالتفات عند سماع أشخاص يتحدثون اللهجة السورية. فاللهجة الآن تحيط بهم، ويجد الأردنيون متعة في الحديث باللهجة السورية مع اللاجئين، حتى وإن كانوا لا يتقونها.

خارج العاصمة، وتحديداً في محافظات الشمال المتاخمة للحدود السورية، يبدأ أثر اللاجئين أكثروضوحاً، فمخيمات أوبرد (٧٠) كيلومتراً شمال عمان، المفرق (٦٨) كيلومتراً شمال شرق عمان، والرمثا (٩٥) كيلومتراً شمال عمان، وهي التي اعتاد سكانها النوم باكراً، الآن يعلمهم اللاجئون السوريون السهر، والحال التي كانت تغلق باكراً أصبحت تفتح أبوابها حتى ساعات متأخرة.

كانت أمراً مستهجنـاً مشاهدة النساء والفتـيات السوريـات يمشـين دون مرافقـة رجلـ في ساعـة مـتأخرـة، نظرـ

فـان المـقدمـات بدـت مـتعـجلـةـ. فيـ العاصـمة عـمانـ، حيثـ هـجرـتـ الغـالـبيةـ العـظـيمـ منـ القـانـونـ أحـواـضـ الزـرعـ، اـنسـياـحاـً لـلـشـروـطـ الـتيـ فـرـضـتـهاـ الشـقـقـ الـاسـمـينـةـ ذاتـ المسـاحـاتـ الضـيـقـةـ، يـعـكـفـ اللاـجـئـونـ السـورـيونـ عـلـىـ تـزيـنـ منـازـلـهـمـ الـتيـ اـسـتـأـجـرـتـهـاـ لـهـمـ جـمـعـيـاتـ الإـغـاثـةـ دـاخـلـ العاصـمـةـ بـأـحـواـضـ الزـرعـ. لـيـسـ مـفـاجـئـاـًـ أـنـ تـجـدـ مـنـهـمـ مـنـ زـرعـ فيـ مـنـزـلـ لـجـوـئـهـ يـاسـمـينـاـ دـشـنـيـاـًـ قـدـ يـحـتـاجـ وـقـتاـ طـوـيـلـاـ لـلـنـموـ،ـ فيـ مـحاـولـةـ لـاستـضـارـ مـنـازـلـ اـبـتـعـدـواـ عـنـهـاـ،ـ وـرـبـماـ كـتـسـلـيـمـ ضـمـئـيـهـمـ بـانـ الـلـجـوـءـ سـيـطـوـيـ مـانـحـاـ اليـاسـمـينـ فـرـصـةـ لـزـهـورـ.ـ لوـ حدـثـ ذـلـكـ،ـ فـقـدـ يـعـرـفـ مـكـانـ إـقـامـةـ الـلاـجـئـينـ

لـمـ يـكـنـ الإـيقـاعـ السـوـريـ بـعـيـداـ عـنـ وـاقـعـ الـحـتـمـ الـأـرـدـنـيـ يـوـمـاـ.ـ فـكـانـ يـأـتـيـ مـعـلـباـ فيـ "ـمـرـطـبـاتـ"ـ الـمـكـدوـسـ وـالـمـخـلـلـاتـ وـعـلـبـ الـحـلوـيـ وـالـمـسـتـورـدـاتـ الـقطـنـيـةـ،ـ وـغـيرـهـاـ مـنـ الـمـنـتجـاتـ الـقـضـلـهـ الـأـرـدـنـيـوـنـ عـلـىـ صـنـاعـاتـهـ الـمـحـلـيةـ طـوـيـلـاـ.ـ وـأـحـيـاناـ أـخـرـىـ يـنـغـمـسـ الـأـرـدـنـيـوـنـ بـإـيقـاعـ فـرـحةـ سـيـاحـةـ إـلـىـ سـوـرـيـاـ تـدـوـمـ لـسـاعـاتـ سـيـاحـةـ،ـ هيـ مـالـياـ أـقـلـ كـلـفـةـ وـأـكـثـرـ مـتـعـةـ مـنـ السـيـاحـةـ الدـاخـلـيـةـ فـيـ بـلـادـهـ.

الـإـيقـاعـ الـذـيـ نـظـمـتـهـ الـحـدـودـ زـمنـ طـوـيـلـاـ،ـ فـارـضـةـ انـعـكـاسـاـ مـحـدـودـاـهـ عـلـىـ الـجـمـعـيـةـ الـأـرـدـنـيـ،ـ تـنظـمـهـ الآـنـ الفـوـضـيـةـ الـتـيـ أـتـاحـتـ تـدـفـقاـ عـشوـائـاـ لـلـلاـجـئـينـ الـسـوـرـيـوـنـ الـذـينـ اـخـتـلطـ مـاـ يـزـيدـ عـلـىـ ٧٠ـ فـيـ المـثـلـةـ مـنـهـمـ بـالـجـمـعـ،ـ خـارـجـ مـخـيمـاتـ الـلـجـوـءـ الـتـيـ خـصـصـتـ لهـمـ.

وـانـ كـانـتـ قـوـانـينـ عـلـىـ الـاجـتمـاعـ تـشـرـطـ سـنـوـاتـ طـوـلاـ مـنـ التـفـاعـلـ لـيـظـهـرـ أـثـرـ الـلاـجـئـينـ السـوـرـيـوـنـ عـلـىـ الـبـنـيـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـأـرـدـنـيـ،ـ

عبارة صغيرة: «جميع الوجبات تقدم مع مرقة الغاز المسيل للدموع الذي يضفي المذاق المصري الحار اللذيد على الوجبة».

تبيه الحكومة لهذا، وقررت تعاقد مع الشركة الأمريكية نفسها على إعداد الغاز المسيل دموع على هيئة حقن، يتم حقنها طفل المصري المولود حديثاً، فلا فارقه رائحة الغاز طوال حياته، قدرات تنفسه، الـ **القائمة**

منذ سنتين لم يتوقف الغاز المسيل للدموع عن زيارة أرضنا الحبيبة. منذ سنتين أصبح الغاز المسيل للدموع ظهراً من مظاهر الوجود المصري. في النهاية، قررت السلطات الحاكمة أنه لا معنى إطلاقاً لأن يطلق جنودها الغاز المسيل للدموع، ثم يتوقفوا، ثم يعودوا بعد أسبوع لإطلاق الغاز المسيل للدموع، وهكذا. رأت الحكومة أن في هذا إهداً غير محتمل للوقت، واتفقت مع شركة أمريكية على تصنيع سحابة غاز مسيّل للدموع دائمة مقاومة فوق أرض مصر. كانت السحابة تشمل منطقة وسط القاهرة، ثم توسيع حول المنطقة، حتى انتهت بها الأمر وهي تتظل أرض مصر كلها. يسأل البعض عن الهوية المصرية، يسألون ما هي؟ طيب، لقد أصبحت رائحة الغاز المسيل للدموع في أذن المصري جزءاً لا يتجزأ من تعريف «الهوية المصرية». شركات السياحة العالمية صارت تشير لصر باعتبارها بلد النيل والهرم والغاز المسيل للدموع. بدل بدأت علاقة عاطفية تتكون بين المصري والغاز المسيل للدموع. عندما يخرج المصري خارج بلده فإنه سرعان ما يعود مشحوناً بشوّقه الشديد لرائحة الغاز.

حمد الفضيلات

صحافي من الأردن

